نظمي

قصة الفنان في المعركة

بقلم خضر نبّوه

كان نظمي يحس احساسا عميقا بتفاهة الحياة التي يحياها . فنفسه الطموحة ذات الاجواء البعيدة لا ترتوي . ان للعمل الفني جوا خاصا ترتاح اليه روح الفنان . كان يرسل بعض الصور الكاريكاتورية الى الصحف ولكنه لم يكن راضيا عن اكثر . كان يريد ان ينصر كل الانصراف الى التعبير الواسع عن مشاعر الانسان وجزع الطبيعة وشرودها . الا انه كان يحتاج الى ان تدفع له الصحف . اكثر الاحيان ما كان ليجد فاكهة على الطاولة .

ان طفلتيه ناديا وأمل تحتاجان الى ملابس جديدة ، بل هما بحاجة الى اشياء ضرورية كثيرة . ان امهما هي ايضا بحاجة الى اشياء ضرورية . لقد رسم خلال مدة طويلة لوحات جميلة وعرضها للبيع في مناسبات كثيرة ولكن احدا لم يشتر ...

ان لوحة « الصيف » التي كانت من أجمل لوحاته اشتراها احد السعوديين وهو رجل بليد الذهن لا يفهم ما تعنيه كلمة « فن » . جاء صدفة ورآها فدفع فيها ثلاثمائة ليرة لا ثمنا وانما « حسنة » باعتبار انه من اقرباء زوجته ...

لقد جرب مرارا ان يستأجر شقة جديدة في حي جديد هادىء . ان الشقة التي يسكن فيها بشارع صبرا لا تدخلها الشمس وهي مؤلفة من غرفتين احداهما يخصصها للرسم وللاستقبال وللطبخ.. ولناديا واختها .. والغرفة الثانية اضيق من الاولى مخصصة للنوم .

كان يرسم والضيوف من حوله . اكثر الاحيان كان يضطر ان يترك الرسم ليساعد زوجته في اشغال البيت او للعناية بناديا وأمل اللتين لا تتجاوزان السابعة ، وكان يتأثر بينما يزوره بعض الاصدقاء الجدد الذين لا يعرفون طباعه . واحيانا يتنازل عن وقته كله ليتحدث ويضحك ويروي النكت . او يشاركهم في هذا كله وهو منكب على العمل . انه يتحدث احيانا باتفه الاشياء عن الاسعار ونوع القماش والملاحظات الكثيرة التي يبديها الناس حيال بعضهم . كان يشفق ان يشعر انسان بجفاء وهو في بيته . كان يحب جميع اصدقائه وجميع الناس حتى الذين يستاؤن منه ..

ولكي يتجنب جرح شعور الناس يهرب من البيت ليتم لوحته. كان يذهب الى البحر او الجبل ، فينزل في المقاهي الكائنة على ضفاف الانهر. كان يذهب كثيرا الى المقاهي الكائنة على ضفاف نهر الكلب . انه يعشق المناظر التي تكتنف النهر وكأنما هي حواش للوحة جميلة تزيد من روعة النهر وانسيابه ــ لقد رسم جسر النهر القديم في روعة . ولكن كان مزعجا بالنسبة اليه ان ينقل ادوات الرسم من مكان الى مكان وكان مزعجا اكثر ان يلتقي باناس فضوليين...

كانت زوجته لا تطلب اشياء كثيرة . ولكنها حينما تفعل ولا يكون بمقدوره ان يلبي طلبها يسخر من نفسه قائلا « لو كنت اسكافيا لكنا مرتاحين اكثر، اليس كذلك يا لميا ؟ »

كان يسكن بجوارهم في شقة قديمة صديقه محمد . كان محمد قصاصا شابا يحرر في الصحف . وقد تعود ان يزوره بين وقت وآخر فيؤنسه ويجلي نفسه من هموم العمل . كان محمد مرحا ويعرف طباع نظمي فاذا ذهب اليه ووجده منكبا على العمل تركه وراح يداعب ناديا وامل .. ان ناديا وامل تدعوانه بالرجل المخيف، وربما كان ذلك لان وجهه يشرق دائما بضحكة طفلية عذبة .. انهما جميلتان واجمل ما فيهما عيناهما اللتان يشيع فيهما حلم اخضر ...

ان عينيهما خضروان كعيني امهما . لا يشبهان والدهما الا في ذكائه .. قال لمحمد ذات يوم « ان الفنانين يشكلون في هذا البلد طبقة واحدة مع العمال والفلاحين هي الطبقة الكادحة » . ان محمد مثلا يمارس كتابة القصة القصيرة منذ عشر سنوات ، وقد برز كقصاص ناجح ، ولكن حتى هذا الوقت ومنذ ان كان بائع ترمس يجول ازقة بيروت في الليل مرتعدا ضائعا تحت المطر لم تتبدل حياته . لقد ولد يتيما ..

ولكن محمد مع ذلك اكثر تفاؤلا منه بل هو يعتقد ايضا ان محمد اكثر مرحا وانسجاما مع الناس اوعلى الاصح اكثر عطفا عليهم . ان محمد اكثر تجربة مع انه لا يتجاوز الخامسة والعشرين وهو فنان حساس جدا، ولكنه لا يفكر الا بلحظة التألق . قال له انه عاش مع جميع الناس . نام مع الحمالين والبحارة . نام مدة شهر في مركب قديم على الشاطيء وسرق وكذب وباع الترمس ولكنه يعتقد اليوم ان اجمل شيء في الحياة هو ان يقف الانسان في لحظة متألقة .. وهو متفائل لانه يعيش اللحظة.

كانا حينما يخرجان معا في الحي ويصلان الى نهاية شارع صبرا ... يديران رأسيهما قليلا فلا تقع عيناهما الا على بيوت متكاكئة خشبية ، واطفال من ذوي الشباب الممزقة القذرة يتدافعون على الطريق ويغطسون في الوحل والطين وهم اشباه موتى ...

كان يقول محمد ساخرا : « ان هذا الحي الضائع سيكون خالدا في المستقبل . لا احد يتصور ان هذه التربة تنبت شيئا اخر غير الفقر والكفر ...» وبعد ذلك يغرقان بالضحك .. وكان نظمي يحس في الوقت نفسه بحماس للبكاء ..

والحق ان نظمي خلد هذا الشارع الحقير بلوحات رائعة : ببيوته المتخاذلة ... رسم الاولاد الذين تعود ان يلقاهم في الوحل .. ورسم الجوع والشتاء في عيونهم . ورسم العمال في صباح العيد ... الام التي جلست مساء في الباب والسأم والملل في قسماتها واطفال جائعون يشدون فستانها ... وينتحبون ..

كانت لوحاته تحفز كل جارحه في كيان الناظر . اما هو فكان يمضي في الرسم وهو يبتسم لطفلتيه ولزواره .. وكأنه اسعد مخلوق .

وكان لمحمد اقاصيص صغيرة رائعة عن الحي . في اقاصيصه انتقالات رائعة وكأن القاريء تنساب الى سمعه سمفونية شهرزاد . فهو يصور شخصا مريضا يستنجد ... ويحس معه القاريء وكأن مدية تمزق جنبه ثم يتسلل عبر السطور شعاع من نور .. فتخال السهول الخضراء تغني للسماء... والعاشقة تحلم بالحبيب .. وكل الناس سعداء .. حتى يحس بان سطوره تهز كل جارحة في جسده . وبأنه عبد لقصصه . كان في وسع محمد ان يؤثر تأثيرا بعيدا في نفوس قارئيه .. ولهذا كان قريبا من الناس ...

ان محمد اصبح على صلة بابناء الحي ، ان الفتيان والشيوخ يجدون لذة في ان يقرأوا شيئا عنهم وعن مستقبلهم !

ان محمد ازداد تفاؤلا حين بدأت افكاره تنبت في رؤوس الفتية المتطلعين المتشين عن طريق ... انهم دائما يبدون سعداء حين يجتمعون به او حين يرافقهم في النزهة ..

اما نظمي فلديه تلامذة ايضا يعرضون عليه لوحاتهم . وقد لمس عند البعض بذور الفن .

ويبدو بشكل جلي انهم متأثرون بلوحاته فهم لا يرسمون الا الاشياء التي يحسونها والتي هي ذات تأثير على حياتهم وحياة شعبهم !.

ان لوحاتهم ، وان لم تكن فنية للغاية ، تصطبغ بالواقعية والروح الثورية التي تنق بها لوحاته. « يجب ان نتحرر من الوصول » ... هي احدى الاوحات التي رسمها صلاح وهو فتى لا يتجاوز الثامنة عشرة وتمثل بالضوء البعيد طفلا صغيرا مبتل الثياب ملطخا بالوحل والتراب ونعلو قسماته لمحات من الخوف والاضطراب ..

وفي ثورة الشعب ضد الحكومة المستبدة انضم محمد الى المقاومة الشعبية في موقع الحرج وتولى اصدار جريدة الثورة . ووجد نظمي منفذا لثورته المكبوتة منذ عهد بعيد فقرر ان يلحق بمحد ، كان يعرف ان كل انسان في هذا البلد محروم من حقوقه كانسان . ولم يفاجأ حينما اغتالوانسيب المتني فقد كان يعرف انهم يدبرون مؤامرة لاغتيال الصحفيين والادباء والفنانين الذين يعارضون عهد الفساد والرشوة والمحسوبية والتكتلات العسكرية ... وكان يعرف جيدا ان نزول القوات الاميركية الى لبنان لا يبرره الا قانون الغاب ...

وذات مساء عاد من موقع الحرج واخبر زوجته انه يريد الانضمام للمقاومة الشعبية وطلب منها ان تذهب هي وطفلتاهما الى اهلها في الجبل ...

ولما عاد الى المركز استقبله القائد العام وكان شابا حازما على صداقة متينة معه . وقد قال للرفاق المقاومين الذين كانوا في القيادة : « هذا فنان جديد يدخل المعركة » . فرد عليه نظمي بصوت حازم « لا أبدا ، ادخل المعركة كاي انسان عادي . واريد ان تعاملوني كاي انسان عادي .»

ولما خرج الى الرفاق في ملعب المركز واجهته نسمات المساء العذبة متسللة عبر اشجار السرو الباسقة فتنفس في ارتياح . وقد احبه افراد المقاومة واخذ كل واحد فيهم ينافس الاخر على تعليمه استعمال السلاح ثم تولى أمره محمد ـ وكان قد تدرب على استعمال وتركيب بعض الاسلحة ـ واخذا ينامان معا في فراش واحد واكثر الاحيان يحرسان معا في متراس واحد ...

كان نظمي يلح على ان تكون حراسته وراء المتراس الكائن في قلب الحرج على طريق بيروت . كان يتمنى بشكل اكيد ان يشترك في معركة مع الاعداء . كان يعرف ان المتراس هنا على احتكاك دائم مع جنود الاميركان والعصابات الشمعونية .

كان عليه ان يحرس في الليل والنهار وان ينهض باكرا للقيام بالتمارين الرياضية . وعند العصر عليه ان يتدرب على استعمال السلاح الجديد وعلى التصويب . ان « اسبر » مدرب الموقع رجل عسكري انضم للمقاومة في المدة الاخيرة وهو نظامي حتى العظم . انه بالطبع لا يعترف بوجود تأملات وسرحات ذهنية . ان الثورة بالنسبة اليه زنود من فولاذ وبنادق ممتازة .

وكان مع ذلك يكل اليه بوصفه مثقفا ان يستقبل الضيوف الذين يفدون الى الموقع ، وان يفهم الرفاق ويعقد حلقات تدريبية يشرح فيها اهداف الثورة . وتجرد تماما من نزعاته الفردية وأجاد في توضيح اهداف الثورة بحيث ان الرفاق قالوا عنه انه « فنان سياسي » كما قال عنه محمد ذات يوم « انه يستطيع ان يهزم دالز بصورة كاريكاتورية واحدة امام الرأي العام »

ولم يكن المدرب يعذره ان هو تأخر عن التدريب . كان لسانه طويلا ، ولكنه مع ذلك كان يقول له « اني اعجب جدا بلوحاتك »

كان وهو يرسم في غرفة السكرتيرية يلتف الرفاق ومحررو الثورة حوله. كان بعضهم يميل الى الرسم وكانوا يعرضون عليه ما رسموه عن الثورة طالبين منه ابداء رأيه فيه والاشارة الى مواضع الخطأ ، فكان يساعدهم. ولكن مواضيعهم كانت اجمالا مفتعلة وتافهة . على انه لم يجسر ان يصدمهم بالحقيقة !

وكان يتنازل بدون اسف عن بعض راحته من اجل استقبال الضيوف حين لا يكون هناك من يستقبلهم في غرفة السكرتيرية . وكان اكثر الناس الذين يتسللون الى السكرتيرية يتسللون على غير ارادته ..

غير انه كان سعيدا حتى الان بالجو . كان لا يجد ساعات فراغ ليكون على موعد مع نفسه ولكنه مع ذلك يحس بالانسجام مع الرفاق ، وكان رائعا ان يجلس معهم عند المساء ينتظرون محي الدين الذي يهيء لهم العشاء ...

ومحي الدين شاب ضخم الجثة حتى انه لا يستطيع ان يقرفص فيعفيه اسبر من التمارين الشاقة ، وكان الرفاق قد تعودوا في هذا الوقت ان يشكلوا حلقة تجتمع تحت اشجار السرو الباسقة قريبا من غرفة المطعم ويغنون « الحفلة بلا اكل كالساعة بلا عقرب » كان نظمي وهو يغني معهم يشعر بجو عائلي حبيب .

ويظل المقاومون يغنون حتى يستدعيهم محي الدين الذي كان رغم ضخامة جثته وبطنهالمنفوخ ظريفا وطريفا للغايةوقد اوصى نظميعلى لوحةفصوره مقرفصا وهم يقومون بالتمارين الرياضية الصباحية فبدا كانه شتخصان.

ومضى ايار . مضى ثقيلا جدا على اللبنانيين واشرف حزيران . والحالة السياسية جامدة . والنهارات تزداد طولا وحرا ومللا وليس في الجو امل بعودة الحياة الى طبيعتها ...

ولكن نظمي كان مرتاحا لانه كان ينتج . كان يعتقد بالوحي الفني . فمادام هذا الوحي نازلا عليه فهو يستطيع ان يرسم بحماس ولذة واندفاع. رسم لوحة رائعة بعنوان «العدد الاول من جريدة الثورة » وكان يمثل رجال المقاومة يطالعون العدد الاول بشغف زائد : الذي في المؤخرة يطل برأسه من خلف كتف الذي في المقدمة ، والذي في المقدمة عيناه مسمرتان في العدد المنشور على اللوحة ، وبينهما اشخاص يقرأون ثم يذيعون ما يقرأون على الرفاق الاخرين وهم يلوحون بايديهم في حماس وبعض الاشخاص يندسون لا لشيء الا بدافع الدس .. كان محمد سعيدا بهذه اللوحة فقد زادت من شهرة جريدته الصغيرة التي لا تتجاوز الصفحتين ..

واستوحى فكرة لوحة اخرى من صنوبر حرج بيروت . رسم رجال المقاومة وهم يشربون الشاي تحت ضوء القمر . رسم الخطوط الاولى للوحة على علبة سجائر وهو وراء المتراس في الحرج .

ورسم المقاومين وهم يتدربون على السلاح وهم على الطعام .ورسمهم وهم ينقلون اكياس الرمل على ظهورهم ليصنعوا منها المتاريس . ورسمهم باشكال عادية وغير عادية وهم في المركز اثناء النهار .. كانت رسومه

عميقة الخاجت بعيدة الاضواء ...

وعلقت اكثر لوحاته على الجدران في المركز ، ونشر بعضها في الجرائد التي كان يرسم لها قبل الثورة والتي كانت تصدر في منطقة المقاومة .

كان وهو يرسم يلتف الرفاق حوله ولكنه كان يجيب على اسئلتهم باقتضاب . احيانا يسألهم : « من ؟ واين ؟ وكان يتأثر جدا من اجلهم ويضطر بدافع انساني ان يرفع رأسه بين وقت واخر ليلتفت اليهم وهو يبتسم ...

ثم اخذ يتخلف عن التدريب ،ولكنه كان يتألم ايضا لذلك . وكان يقول للمدرب بانه سيعود ليتفرغ من جديد للتدريب حال انتهاء لوحته ... كان قد بدأ بلوحة كبيرة تمثل منظرا اجماليا للمركز . وكان قد انفق فيها اكثر من اسبوع ، وقد تعمد ان يجمع كل شخصيات المركز بطباعها وخصائصها في اللوحة ، وكانت ملامح الاشخاص مبالغة في الشدة ولم تكن اللوحة على الاجمال تعجبه ...

ولما رآها محمد لم يقل شيئا وانما كان يشيع في عينيه صمت حزين وخيل اليه انه سيقول : « انها اتفه لوحة رآها » ولكن محمد لا يقول هذا .

وطوى اللوحة واخفاها في احد الادراج . وحاول ان يبدأ من جديد. ولكنه احس بان الجفاف قد سرى الى قلبه واذا به امام فراغ .. لا يمكن ملؤه . وما لبث ان ادرك ان الرسم كان وسيلة هامة في تخفيف الصخب الذي يزدحم به الجو ، والآن وقد فارقه « الوحي الفني » فقد اخذ يحس احساسا شديدا بالرتابة والملل ...

ثم اعتراه تغير سريع شامل فأصبح عصبيا شارد البال صامتا ، ميالا الى الوحدة ، وفقد اهتمامه بالرفاق ، ولم يعد يقبل على العمل بالحماس نفسه . وصار في ساعات النهار يتكيء على الحائط وحيدا تحت اشجار السرو او يستلقي على حصيرة في غرفة العتاد المنفردة ويروح يحدق في السقف الخشبي .

كان نظمي يريد ان ينتج .. لا يريد سوى الانتاج .. انه خائف حتى لا يفارقه الوحي الى الابد .. ماذا كان يحل به لو لم يكن هناك شيء يسمى الرسم .. ربما لا شيء ولكن سيكون حتما ميتا بلا قبر ... ولاحظ نظرات الرفاق اليه .. فاذا بها ممزوجة بالشك والاضطراب .. وحز ذلك في نفسه ولكنه كان على يقين بأنه لن يستطيع ان يمثل المهزلة من جديد .. انه لن يستطيع ان يخلق من نفسه انسانا بسيطا سهلا .. وصار احيانا يستيقظ في الليل مذعورا ووسط العتمة في المركز والسكون الذي ينبض بالرهبة يتحرك لسانه في صمت : « يا الهي الهمني الوحي لكي ابدع اشياء جميلة ليثق بي الناس او لاثق بنفسي على الاقل . »

ولاحظ القائد انفراده وتهربه من الحلقات الدراسية ، وكان يعز عليه ان يراه بهذه الصورة ، فقال له ذات يوم ان الرفاق يلاحظون وحدتك . وطلب منه ان يعود اليهم من جديد ، ولكنه قال له باقتضاب « لا استطيع ... احتاج الى الوحدة » . اما محمد فقد كان يفهمه اكثر من الجميع ، ولم يسأله شيئا ...

ثم لم يعد يدخل الى غرفة السكرتيرة ، ان محرري الجريدة يثرثرون اكثر من النساء . وكان يريد ان يهرب من هذا الجو ذي الآفاق الضيقة والذي لا يسمع فيه الا اسم رئيس جمهورية خائن ورئيس وزارة مجرم..

ولكنه كان يحس برغبة جامحة للرسم . ان الرسم هو دنياه وهو بيده ذات فعالية كالسلاح ... لا يريد شيئا اخر ، ولا يهمه من الخونة الا انهم اشخاص حقيرو النفوس يستطيع ان يفضح مشاعرهم ونواياهم وجرائمهم بخطوط صغيرة على ورقة لا تساوي قرشا واحدا ..

ولم يجد مكانا ليرسم الا غرفة العتاد ... كانت خلف المبنى لا يراه فيها احد . وكان في وسط الغرفة حاجز خشبي يقسمها الى قسمين. قسم يحتوي على العتاد وقسم اخر لا يحتوي الا على بعض الكتب والدفاتر المدرسية ... فنقل طاولته وكرسيه من غرفة السكرتيرية الى الفسحة الخالية في الغرفة . كانت الظلمة تختلط بالنور في الفسحة وكان هذا ما يريده ، وفوق ذلك كان بامكانه ان يغلق الباب من الداخل ...

ولم يخرج من الغرفة الا اوقات الطعام وكان اكثر الاحيان يتغيب عن الطعام . وقد اشفق عليه محمد وصار يدعوه بنفسه ، ولكن نظمي مان يأكل كثيرا وكان لا يلبث ان يعود بسرعة الى الغرفة . ولم يعد يراه احد في المركز . ثم امتنع عن الذهاب لتناول الطعام فصار محمد ينقل اليه الطعام في مواعيده . وقد لاحظ في المدة الاخيرة انه يضع امامه على الطاولة لوحة بيضاء لم يرسم عليها شيئا .

وذات يوم دخل عليه . كان قد غار خداه وفقدت عيناه بريقهما القديم الصافي ولكن قسماته التي كانت تعلوها لمحات الحيرة والاضطراب اخذت تنقشع ليحل محلها عزم واصرار ، وكعادته لم يسأله عن شيء . بل انه وضع امامه الطعام واكتفى بالنظر الى اللوحة التي امامه وكان قد كتب عليها بخط رفيع مشوش « اللحظة المتألقة » .

خضر نبوه